

من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة

(١٤٩)

فارس المنبر والخطيب المفوَّه الشيخ عبدالحميد كشك

بقلم: المستشار: عبدالله العقيل(*)

(١٣٤٤-١٤١٧هـ/١٩٣٣-١٩٩٦م)

ولد الشيخ عبدالحميد كشك في «شبراخيت» بمحافظة البحيرة، في العاشر من مارس عام ١٩٣٣م، وحفظ القرآن الكريم، وهو دون العاشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية، وفي السنة الثانية من المرحلة الثانوية حصل على تقدير ١٠٠٪، وكذلك في الشهادة الثانوية الأزهرية، وكان ترتيبه الأول على الجمهورية، ثم التحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وكان الأول على الكلية طوال سنوات الدراسة، وكان أثناء الدراسة الجامعية يقوم مقام الأساتذة يشرح المواد الدراسية في محاضرات عامة للطلاب بتكليف من أساتذته الذين كان الكثير منهم يعرض مادته العلمية عليه قبل شرحها للطلاب، خاصة علوم النحو والصرف.

جدير بالذكر أن الداعية الكريم الراحل الشيخ عبدالحميد كشك كان مبصراً حتى الثالثة عشرة من عمره، ففقد نور إحدى عينيه، وفي سن السابعة عشرة، فقد العين الأخرى، وكان كثيراً ما يقول عن نفسه كما كان يقول ابن عباس رضي الله عنهما.

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما
ففي فؤادي وعقلي عنهما نور

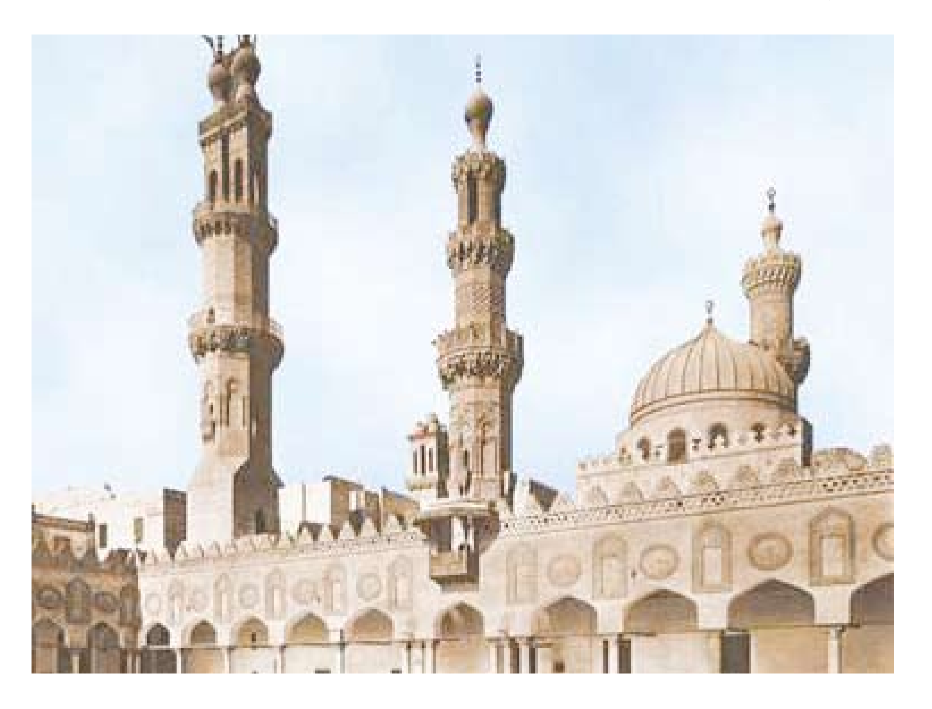
عُيِّن الشيخ عبدالحميد كشك معيداً بكلية أصول الدين عام ١٩٥٧م، ولكنه لم يقم إلا بإعطاء محاضرة واحدة للطلاب، بعدها رغب عن مهنة التدريس بالجامعة، حيث كانت روحه معلقة بالمنابر التي كان يرتقيها من سن ١٢ سنة، ولا ينسى فضيلته تلك الخطبة التي ارتقى فيها منبر المسجد في قريته في هذه السن الصغيرة عندما تغيب خطيب المسجد، وكيف كان شجاعاً فوق مستوى عمره الصغير، وكيف طالب بالمساواة والتراحم بين الناس، بل وكيف طالب بالدواء والكساء لأبناء القرية، الأمر الذي أثار انتباه الناس إليه، والتفافهم حوله.

بعد تخرَّجه في كلية أصول الدين، حصل على إجازة التدريس بامتياز، ومثّل الأزهر الشريف في عيد العلم عام ١٩٦١م، ثم عمل إماماً وخطيباً بمسجد «الطحان» بمنطقة الشرابية بالقاهرة، ثم انتقل إلى مسجد المنوفي بالشرابية أيضاً، وفي عام ١٩٦٤م تولى الإمامة والخطابة بمسجد «عين الحياة» بشارع مصر والسودان بمنطقة حدائق القبة بالقاهرة، ذلك المسجد الذي ظل عيناً للحياة قرابة عشرين عاماً.. هي عمر الشيخ الجليل على منبره إلى أن تم منعه نهائياً من الدعوة والخطابة عام ١٩٨١م إلى أن لقي ربه أسيراً ساجداً بين يديه.

للشيخ الجليل من الأولاد ثمانية: خمسة من الذكور، وثلاث من الإناث، وجميع أبناء الشيخ عبدالحميد كشك يحفظون القرآن الكريم كاملاً، فقد كان مربياً ذكياً صبوراً محتسباً.

إعادته لدور المسجد

ولم يكن الرجل يؤدي الخطبة فقط، وإنما حوّل مسجده «عين الحياة» الذي ظل يخطب فيه، منذ عام ١٩٦٤م حتى تم منعه



(*) الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي (سابقاً)



هذه الحلقات بعضها خواطر من الذاكرة قد يعتريها النقص والنسيان. لذا أرجو من إخواني القراء إمدادي بأي إضافة أو تعديل لتداركه قبل نشرها في كتاب مستقل على البريد الإلكتروني: alaqeelabumostafa@hotmail.com

نهائياً من الخطابة عام ١٩٨١م، إلى عيادة طبية وصيدلية لصرف الدواء، ولجنة زكاة لمساعدة المحتاجين، ولجنة مصالحة لحل المشكلات، وكان الرجل رغم كف بصره يقوم وحده بكل هذه اللجان دون وجود أعضاء، اللهم إلا بعض المساعدين، وكان في غرفته الخاصة بالمسجد يحتفظ بدولاب صغير تم وضعه إلى جوار مجلسه الذي كان يستمر لساعات طوال يستقبل خلاله السائلين، وأصحاب المشكلات والحاجات، وكان كثيراً ما ينهض بنفسه ليسلم لبعض المرضى من هذا الدولاب تذاكر الكشف المجاني لدى الأساتذة المتخصصين، ولصرف الدواء المجاني من الصيدليات المتبرعة، ثم ينهض مرات أخرى ليعطي مبالغ من المال لمحتاج أو مريض، وكان يمتاز بذاكرة قوية، وبقدرة فائقة على التمييز بين الأشياء، بل وعلى كشف مصداقية من يتوافدون عليه يومياً من أصحاب الحاجات، وقد ظل الشيخ كشك يقوم بهذا الدور من بيته بعد أن تم منعه من الخطابة، إذ حُوّل بيته إلى مجلس علم، وإلى دار يتوافد إليها كل أصحاب الحاجات، ولم يضق يوماً بأحد، والذي ساعده على مواصلة هذا الدور هو تعلق المتبرعين للخير وأصحاب الحاجات به في وقت واحد.

ورغم ما رُوِّجَ كثيراً ضده بأنه يدعو ليثور الناس في خطبه، إلا أن مظاهرة واحدة لم تخرج من مسجده الذي كان يؤمه عشرات الآلاف، فقد كان دائم التوجيه في نهاية خطبه للمصلين بالانصراف في هدوء ونظام.. وكان يخوض نقاشات واسعة ومطولة مع كثير من الشباب من أصحاب الأفكار الغريبة: أفكار التكفير، وتحريم التعليم في مؤسسات الدولة، والعمل في أجهزتها، وكان الحوار ينتهي دائماً باقتناع هؤلاء الشباب بما يقول، وترك خطئهم.

كانت بساطته المتعددة الجوانب من أسرار جاذبيته للناس.. بساطته في أسلوب الحديث، وبساطته المتناهية في بيته، حيث كان يعيش في شقة متواضعة في حي حدائق القبة بشرق القاهرة، يوحي مدخلها وغرفة استقبالها لزواره ببساطة شديدة، ورغم أن الرجل كان يمكن أن يكون مليونيراً في وقت قياسي، إذا تاجر في أشرطة خطبه


الشيخ عبدالحميد كشك

من أبناء شبراخيت بمحافظة البحيرة حفظ القرآن دون العاشرة وحصل على المركز الأول طوال سنين دراسته

فَقَدَ بصره في السابعة عشرة من عمره وحصل على إجازة التدريس بامتياز ومثّل الأزهر في عيد العِلم عام ١٩٦٩م

ودروسه، حسبما عرض عليه الكثيرون، إلا أنه رفض ذلك بشدة، مؤكداً أنه يتقاضى راتباً من وزارة الأوقاف على عمله، وبالتالي فلا يجوز له أن يتقاضى مبالغ أخرى من أية جهة وبأية صورة، وهكذا رفض، بينما اغتنى الكثيرون على حساب هذه الأشرطة.

وكان يرسم البسمة على وجوه جالسيه، ذلك رغم أنه كان يتقطع من الداخل لحرمانه

البساطة كانت سر جاذبيته المتعددة الجوانب فقد عاش في شقة متواضعة في حي حدائق القبة بشرق القاهرة

تعرفت عليه أثناء ترددي على أساتذة الدعوة في القاهرة وأحببته واستدركت الكثير من خطبه وشجعت على توزيعها

من منبره، قال أكثر من مرة: إن اشتياقي لمنبري كاشتياق الطفل التائه إلى أحضان أمه.. وإنني أدعو الله أن يحييني حتى أتم تفسير القرآن الكريم، إنني أريد أن ألقى ربي وأنا أحمل بين يدي هذا التفسير، فأنجز «في رحاب التفسير».

قال عنه الشيخ المجاهد أحمد المحلاوي:

أحسن الله عزاءنا - معشر المسلمين - وعظَّم الله أجرنا - بني الإسلام - ورحم الله ميتينا.. ففي أسبوع واحد لقي ربهما عالمان جليلان (يقصد الدكتور عبدالرشيد صقر، والشيخ عبدالحميد كشك)، وداعيان إسلاميان عظيمان، ما أحسب أن التراب الذي وارهما سوف يطمس اسميهما في أذهان وقلوب وأسماع الملايين، بل لعل وفاتهما تجعل من علميهما زاداً ومداداً على الطريق.. عرفتهما المعتقلات - كما عرفت غيرهما من الرجال - أمثلة للصبر والسداد، وعرفتهما المنابر من فرسان الحق الذي يجولون به وله، وعرفتهما ساحات العطاء الإسلامي، والإصلاح الاجتماعي.. ينزلان على الناس برداً وسلاماً، كما ينزل ماء السماء، فيحيي به الله الأرض بعد موتها.

ولك وحدك يا رب نقول: «إلى الله المشتكى».

اعتقاله

اعتقل الشيخ الجليل - رحمه الله - عام ١٩٦٥م، وظل بالمعتقل لمدة عامين ونصف، تنقل خلالها بين معتقلات طرة، وأبوزعبل، والقلعة، والسجن الحربي.

كما اعتقل عام ١٩٨١م، وكان هجوم السادات عليه في خطاب ٥ سبتمبر عام ١٩٨١م هجوماً مراً، كما كان الهجوم البذيء - كذلك - على كبار الدعاة كالمرحوم الأستاذ عمر التلمساني، والداعية الكبير أحمد المحلاوي، وقد لقي الداعية الكبير الراحل خلال هذه الاعتقالات عذاباً رهيباً ترك آثاره على جسده، وكان كما قال مرافقوه داخل السجون: مثالاً للصبر، والثبات، والاحتساب، واليقين.

مؤلفاته

ترك الداعية الكبير الراحل ١٠٨ كتب، تتناول كافة مناهج العمل والتربية الإسلامية، وكان في كل هذه الكتابات ميسراً

لعلوم القرآن والسنة، مراعياً لمصالح الناس، وفقه واقعهم بذكاء، وعمق، وبصيرة، كما توّج جهوده العلمية بمؤلفه الضخم في عشرة مجلدات في «رحاب التفسير» الذي قام فيه بتفسير القرآن الكريم كاملاً، وهو أول تفسير يعرض للجوانب الدعوية في القرآن الكريم.

ومن مؤلفاته الأخرى

قصة أيامي، طريق الجنة، البطولات في ظل العقيدة، نفحات من الدراسات القرآنية، بناء النفوس، صور من عظمة الإسلام، أضواء من الشريعة الغراء، الوصايا العشر في القرآن الكريم، الفتوحات الربانية، الصراع بين النفس والمال، ساعة صفاء مع النفس، مصارع الظالمين.

الشيخ في عيون أبنائه

قال ابنه عبدالمنعم: والدي لم يضرب أي أحد منا - نحن الثمانية - طوال حياته.. وقام بتحفيظنا القرآن الكريم بنفسه، رغم ضيق وقته، وكثرة شواغله وهمومه، ثم قال: كان والدي - رحمه الله - يظل في محبسه هذا بجوار الهاتف، يرد على أسئلة واستفسارات الناس لمدة طويلة كل يوم كانت تصل في بعض الأيام إلى أكثر من خمس ساعات.. وعندما كنا نشفق عليه من هذا الجهد المزعج، كان يقول: لابد أن أعمل هذا، لكي يكون راتبي من وزارة الأوقاف حلالاً.

ثم قال: إن ابنتي هالة هو الذي سماها بهذا الاسم.. وعندما سألناه لماذا؟ قال: لأن الرسول ﷺ كان يحب هذا الاسم، لأن السيدة خديجة أم المؤمنين رضوان الله عليها كان لها أخت اسمها هالة، وكانت تشبهها تماماً، وبعد وفاة السيدة خديجة كانت أختها هالة كلما رآها الرسول ﷺ ازداد سروراً، وكان كلما طرق بابه طارق يقول: «اللهم هالة».

لذلك، فقد أطلق عليها هذا الاسم الحبيب للحبيب ﷺ، ونحن نعتبر أن الذخيرة التي تركها الراحل الكبير من الأشرطة التي تضم خطبه ودروسه، كانت من أهم روافد التربية الإسلامية، خلال



الأستاذ عمر التلمساني

وصلت مؤلفاته إلى ١٠٨ كتب تناولت كافة مناهج العمل والتربية الإسلامية.. وتوج جهوده بالمؤلف الضخم «في رحاب التفسير»

السنوات العشرين الماضية، وقد كتب الله لها الذيوع والانتشار في شتى أنحاء الأرض، وقد وصلت إلى ٤٢٥ خطبة جمعة، وأكثر من ثلاثة آلاف درس، وكانت آخر خطبه - رضوان الله عليه - هي الخطبة رقم ٤٢٥ الشهيرة قبيل اعتقاله عام ١٩٨١م، والتي بدأها بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ (إبراهيم)، وظل بعدها رهين المحبس إلى أن لقي ربه ساجداً في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٤١٧هـ، الجمعة الموافق ٦ ديسمبر لعام ١٩٩٦م.

شمائله

أولاً: الإخلاص العميق في كل علم وعمل.

ثانياً: الصدق والثبات والشجاعة إلى أقصى حد.

ثالثاً: الذكاء الحاد، وخفة الظل التي قربت مفاهيم الدعوة للناس.

رفض المتاجرة بشرائط خطبه مكتفياً براتبه من الأوقاف.. في حين حقق الكثيرون ثروات على حسابه

رابعاً: المواهب الشخصية التي حباه الله تعالى بها، كالذاكرة الذهبية، واللباقة، الفصاحة التي لا مثيل لها.

المحامي الأول للحركة الإسلامية

فقد دخل بالدعوة إلى كل مكان، كنت تسمع أشرطته عند أساتذة الجامعات، كما تسمعها عند سائقي السيارات، وبائعي الفاكهة والعصائر، وكان يحبه العلماء والمثقفون، كما يحبه العامة والفلاحون والعمال.

وفي هذه الفترة - فترة إعادة التأسيس للعمل الإسلامي المعاصر - كانت المفاهيم الشمولية للإسلام قد غابت عن الناس كثيراً، وكانت النظرة التكاملية للفكرة الإسلامية قد عبثت بها أصابع الاشتراكية والماركسية والناصرية، وكانت رموز العمل الإسلامي تنتقل من كرب إلى كرب.

والفضل يرجع بعد الله تعالى إلى هذا الرجل الراحل الشجاع، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، فدوّت على المنابر أسماء حسن البنا، وسيد قطب، ومحمد فرغلي، وعبدالقادر عودة، ويوسف طلعت، تماماً كما تدوي أسماء ابن حنبل وابن تيمية، والعز بن عبدالسلام، كذلك كانت لخبرة الشيخ كشك الواسعة بالحياة وأنماطها الاجتماعية، وتمكنه من طرح رؤيته في مسائل المرأة والشريعة والتربية والجهاد والإصلاح الاجتماعي.. كان لذلك كله أبعد الأثر في التحليق بالدعوة في كل مكان.

والشيخ كشك يكاد يكون الداعية الوحيد الذي ظل يخطب حوالي أربعين عاماً، ما أخطأ مرة واحدة في اللغة العربية، وكان أحد الثقات المعدودين في علوم اللغة والأصول والفقه وعلوم الحديث، فما رجع إليه في معضلة إلا وجده بحراً زاخراً من العلم الأصيل العميق، فقد كان رحمة الله عليه يفتي في مسائل الميراث شفوياً، وكان يحل أصعب مسائل الفقه والأصول وكأنه يسكب ماء زلالاً.

معرفتي به

بعد هلاك عبدالناصر بدأت التردد على مصر بكثرة للقاء إخواني وأساتذتي في الدعوة، وبخاصة عمر التلمساني، ومصطفى مشهور، وأحمد الملط، وكمال السنانيري، ومحمد مرزوق، وأحمد حسنين، وحسني عبدالباقي، وجمال فوزي، ومحمد حامد

أبوالنصر، والمأمون الهضيبي، وصلاح شادي وغيرهم من رجال الدعوة وقادة الحركة الإسلامية المعاصرة، وكنت أحرص على الصلوات في مساجد القاهرة التي يخطب فيها الدعاة، وكان منهم الشيخ عبدالحميد كشك الذي يشدّ السامعين بجمال أسلوبه، فيشفي صدور المؤمنين، ويستثير حماسهم للعمل للإسلام مهما كانت العقبات ومهما اشتد ظلم الطغاة، ويربط السامعين بالله القوي القاهر المعزّ المذلّ الذي بيده مقاليد الأمور وإليه المصير.

فأحببتُ الرجل واستدركتُ الكثير من خطبه من خلال الأشرطة، وشجعتُ على توزيعها في أنحاء العالم العربي والإسلامي.

وقد حدثني الإخوان الذين زاملوه في في حياته عن رباطة جأشه وقوة إيمانه بالله وتمسّكه بمنهج الحق وطريق الدعاة مهما ادلهمت الأمور، وحمي الوطيس، فالعاقبة للمتقين دائماً.

ولقد انتشر هذا الخير في كل أصقاع العالم العربي والإسلامي وحتى في المهاجر في أوروبا وأمريكا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا، وكنت ألحظ هذا في رحلاتي إلى القارات، حيث أجد من لم يُحسن العربية يستمع إلى هذه الخطب وينفعل بها ويدعو لصاحبها الدعاء الحسن.

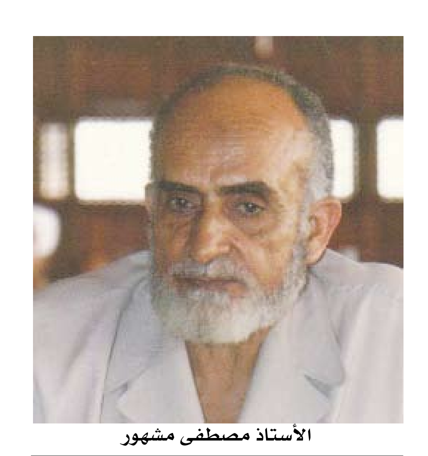
قالوا عنه

قال عنه الأستاذ مصطفى مشهور المرشد العام الأسبق للإخوان المسلمين:

إن الشيخ كشك كان واحداً من فرسان المنابر القلائل والمعدودين، وكان من الدعاة المخلصين العاملين، وإننا جميعاً نتعزى فيه، ونسأل الله أن نفيد من علمه الذي ملأ الدنيا وأنار بصائر الناس.

فضيلة الدكتور محمد عبدالمنعم البري رئيس جبهة علماء الأزهر قال:

إن حزني على الشيخ كشك لا يعدله حزن أبداً.. ذلك لأنني كنت البديل له عندما يتغيب عن منبره، وإن أخوتي له استمرت على مدى خمسة وثلاثين عاماً، ما عهدته خلالها إلا أسداً من أسود الحق لا يبالي في الله لومة لائم، وكان يعتبر نفسه جندياً في أرض الرباط، ولذلك رفض الرحيل عن مصر، رغم العروض والإغراءات التي انهالت عليه من كل مكان، ولكنه كان يقول:



الأستاذ مصطفى مشهور

مصطفى مشهور: الشيخ كشك من فرسان المنابر القلائل ومن الدعاة المخلصين العاملين

إن فرار العلماء من مصر، خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخها، كالتولي يوم الزحف، لأن مصر هي قلب العالم الإسلامي، وإذا مات القلب مات الجسد كله.

ويقول عنه د. جابر قميحة:

أنا لا أبالغ ولا أسرف إذا قلت: إن الشيخ عبدالحميد كشك دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وأصبح شخصية عالمية، وأشهد خلال السنوات الخمس التي قضيتها في «إسلام أباد» عاملاً بالجامعة الإسلامية العالمية أنني كنت أرى الباكستانيين في محلاتهم وأسواقهم وخصوصاً «أيوب ماركت» يتحلقون حول أجهزة الكاسيت يستمعون لأشرطة الشيخ كشك، مع أن أغلبيتهم لا يفهمون اللغة العربية، ولا يتكلمون إلا «الأوردية» وأحياناً الإنجليزية.

سألت أحدهم: أراكم مشدودين لكلمات الشيخ كشك مع أنكم لا تفهمونها!؟ وكان الجواب: «إننا نستمع لدفقات الروح، ونحس بدفء الإيمان، ونعيش في عالم آخر مع هذه النبرات الربانية، حتى لو لم نفهم الكلمات.. أليس في هذا الكفاية؟

وما رأيته في إسلام أباد، رأيته في إسطنبول، وبعض الولايات الأمريكية، وخصوصاً ولايتي «نيوجرسي» و«بنسلفانيا».

ويقول عنه الصحفي شعبان عبدالرحمن مدير تحرير مجلة «المجتمع»: لقد عرفت هذا الرجل للمرة الأولى سنة ١٩٧٩م، عندما حلَّت إليه كتاباً باللغة الإسبانية - لغة دراستي - يحمل عنوان: «سيف الإسلام» ويمتلئ بالافتراءات ضد الإسلام، ثم اقتربت كثيراً من خلال عملي الصحفي، ولم أر البسمة غابت عن وجهه مرة، بل كان يرسمها على وجوه جالسيه ذلك رغم أنه كان يتقطع من الداخل لحرمانه من منبره.

قال لي أكثر من مرة: إن اشتياقي لمنبري كاشتياق الطفل التائه إلى أحضان أمه.. وإنني أدعو الله أن يحييني حتى أتمَّ تفسير القرآن الكريم، إنني أريد أن ألقى ربي وأن أحمل بين يدي هذا التفسير، وقد حقق الله له ما أراد فأنجز «في رحاب التفسير».

شعبان عبدالرحمن: اقتربت منه كثيراً خلال عملي الصحفي ولم تغب البسمة عن وجهه وكان يرسمها على وجوه جالسيه

وفاته

في يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ١٤١٧هـ (١٩٩٦/١٢/٦م) كانت نهاية الشيخ المجاهد الراحل بحق هي حسن الختام.. فقد توضأ في بيته لصلاة الجمعة، وكعادته، كان يتنفل بركعات قبل الذهاب إلى المسجد، فدخل في الصلاة، وصلى ركعة، وفي الركعة الثانية، سجد الأولى، ورفع منها، ثم سجد السجدة الثانية، وفيها أسلم الروح إلى بارئها، متوضئاً مصلياً ساجداً، وبقدر ما كان الحزن يعتصر المعزين.. بقدر ما كانت سعادة الكثير منهم بهذه الخاتمة الطيبة الحسنة.. فالمرء يبعث على ما مات عليه.

لذلك، فإن الداعية الشهير الشيخ محمد حسان عندما حضر إلى العزاء ليلة الوفاة.. قال لأبنائه: لم آت معزياً.. إنما جئت مهنئاً، وحق لكم أن ترفعوا رؤوسكم، لأنكم أبناء المجاهد الطاهر عبدالحميد كشك.

رحم الله أستاذنا الشيخ عبدالحميد كشك، وأسكنه فسيح جناته وحشرنا الله وإياه مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.■